

الوافي في الوفيات

فلقد جلّ خطب دهرٍ أتنا ... بمقادير أتلفت ببغّاكا .
عجباً للمنون كيف أتاهـا ... وتخطّت عبد الحميد أخاكا .
كان عبد الحميد أصلح للمو ... ت من الببّغا وأولى بذاكا .
شملتنا المصيبتان جميعاً ... فقدنا هذه ورؤية ذاكا .
انتهى كلام الصولي .

قلت : ومثل هذا ما كتبه ابن المعتز إلى عبد الله بن سليمان يعزيّه عن ابنه أبي محمد ويسليه ببقاء أبي الحسين أبياتاً منها : .
ولقد غبت الدهر إذ شاطرته ... بأبي الحسين وقد ربحت عليه .
وأبو محمد الجليل مصابه ... لكن يمين المرء خير يديه .
وقال الصولي : أول ما ارتفع به أحمد بن يوسف أن طاهراً أمر الكتّاب لما قتل المخلوع أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا فقال طاهر : أريد أخصر من هذا . فوصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك . فكتب : أمّا بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه عن إجماع المسلمين . قال الله عزّ وجل لنوح عليه السلام في ابنه : " يا نوح إنه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح " . ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله .
وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره وأنجز له وعده فالأرض بأكنافها أوطأ مهادٍ لطاعته وأتبع شيء لمشيئته . وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع وبالأخرة وهي البردة والقضيب . فالحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين بحقه والكائد له من خان عهده ونكث عقده حتى ردّ الألفة وأقام به الشريعة والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فرضي طاهر بذلك ونفذه ووصل أحمد بن يوسف وقدّمه .
وأهدى أحمد بن يوسف هديةً إلى المأمون في يوم نيروز وكتب معها : .
على العبد حقّ فهو لا شكّ فاعله ... وإن عظم المولى وجلّت فضائله .
ألم ترنا نهدي إلى الله ماله ... وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله .
ولو كان يهدى للكريم بقدره ... لقصّر فضل المال عنه وسائله .
ولكنّا نهدي إلى من نعزّه ... وإن لم يكن في وسعنا ما يعاد له .
وقال موسى بن عبد الملك : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مرات . وكان يرمى بأنّه يعبث بموسى بن عبد الملك يتعشقه وعاتبه فيه محمد ابن الجهم البرمكي فكتب إليه

أحمد بن يوسف : .

لا تعذلنّني يا أبا جعفر ... لوم الأخلاء من اللوم .

إن استه مشربة حمرة ... كأزّها وجنة ملكوم .

فتقدم محمد إلى البجلي وكان في ناحيته فأجابه : .

لست بلاحيك على حبّـه ... ولست في ذاك بمذموم .

لأنّه في استه سخنة ... كأزّها سخنة محموم .

حكى علي بن يحيى ابن أبي منصور أن المأمون كان إذا تبخرّـ طرّح العود والعنبر فإذا تبخر أمر بإخراج المجرّة ووضعها تحت الرّجل من جلسائه إكراماً له ؛ فحضر أحمد بن يوسف يوماً وتبخر المأمون على عادته ثم أمر أن يوضع المجرّ تحت بن يوسف فقال : هاتوا إذاً المردود . فقال : ألنا يقال هذا ونحن نصل رجلاً واحداً بستة آلاف دينار ؟ إنّما قصدنا إكرامك وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخوراً واحداً ؛ يحضر عنبر فأحضر منه شيء في غاية الجودة في كل قطعة في المجرّ يبخر بها أحمد ويدخل رأسه في ريقه حتى ينفد بخورها . وفعل به ذلك وبقطعة ثانية وثالثة وهو يصيح ويستغيث وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه واعتلّـ ومات . وكانت له جارية يقال لها نسيم كان لها من قلبه مكان خطير فقالت ترثيه : .

ولو أنّ ميتاً هابه الموت قبله ... لما جاءه المقدار وهو هبوب .

ولو أنّ حيّاً قبله صانه الردى ... إذا لم يكن للأرض فيه نصيب .

وقالت ترثيه أيضاً : .

نفسى فداؤك لو بالناس كلّهم ... ما بي عليك تمذّوا أنهم ماتوا .

وللورى موة في الدهر واحدة ... فألسننا حرب وأبصارنا سلم .

وتحت استراق اللحظ منا مودّة ... تطلّع سرّاً حيث لا يبلغ الوهم .

ومن شعر أحمد بن يوسف قوله : .

كم ليلةٍ فيك لا صباح لها ... أحييتها قابضاً على كبدي